الكنيسة وعالم اليوم

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي
المستشار اللاهوتي لدى غبطة البطريرك الماروني
والخبير في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

عاشت الكنيسة في فترات من تاريخها الطويل في انعزال وانزواء عن العالم وقيمه الارضيّة. فما كانت تُعيره وتُعيرها اهتماماً، مبشرةً بالروحيّات دون ان تَتيمّ الارضيات، خليقة الله. تهزأ بها وتزدري بالمادّة والجسد والحبّ ولا تهتمّ لتطوير تاريخ الانسانيــة إذ لم تكن ترى فيه سوى أوقات عابرة فيها تجربة الانسان وارتباطه بالخطيئة. تودّ دوماً أن تحمله إلى إهمال الأرض: إذ ليس له فيها مدينةٌ دائمة، وأن توجّه نظره الى المدينة العتيدة، تلك اورشليم السماوية. فلا بناء يدوم ولا مدنيّة تنمو ما لم تنحصر في الروحيّات، وما دونها فهو شكل وصورة نزول كهبّة ريح.

ولم تكن الكنيسة لتقف عند هذا الحدّ فتاقت مرّات إلى التسلّط على العالم والانتفاع منه، تشاطره الزعامة، أو بالحري ترفض أن تكون للعالم زعامة زمنيّة مطلقة، فقامت اذ ذاك تطلب لنفسها مهمّة استعمال السيفين، السيف الروحي لحكم الروحيّات والسيف الزمني لتدريب الزمنيّات، واعتبرت نفسها جزءاً لا يتجزّأ من القطاع الزمني: لا تسمح للانسان بالاستقلال الذاتي في توجيه حياته الزمنيّة ولا بالاسترسال في التنقيب والاكتشافات التي تتنافى وبعض المبادئ العلميّة التي سنّها بعض اللاهوتيين والفلاسفة والتي لا أثرّ لها في وحي الكتاب.

وما كانت نتيجة هــذا كلّه سوى أن تخذّل الإنسان وضعضعت معنويّاته وشعر بتشاؤم يربطه إلى الكسل وقد اضطرّ للإقرار بعدم فعّالية أعماله الأرضيّة وبعدم استقرارها في خدمة يتوق اليها أترابه.

وإذ جرّدت الكنيسةُ العالمَ من كل وضعيّة خلاّقة ذهبت به من الانزواء إلى الازدراء بالخليقة فإلى الاستهتار بالتاريخ في حقلي الاقتصاد والاجتماع. فتمخّض العالم عن ثورة أصلُها احترام الإنسان وفعّاليته

الزمنيّة وغايتُها خدمة الإنسان ووسائلُها الانعتاق من الكنيسة وممّا تمثّله ليبنيَ هنا في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي مدينةً ارضيّة تكونُ له موطنَ العيش الأمين. فيصيرُ التاريخُ اذ ذاك تاريخاً كونياً وبشرياً لا الهَ يرتبط به ولا شرائعَ توجّهه سوى التقنيّة وما اليها من سنن لتطوير المادة وجعلها في خدمة الانسان الذي يختبر كلّ يوم مسؤوليّته في سبيل أخيه الإنسان ولا يرى في الحريّة سوى العمل على الاضطلاع بتلك المسؤولية.

وبينا كانت الكنيسةُ تحصرُ اهتمامَها بأبنائها وتدافعُ عنهم لتحميَهم من مغبّة تلك الثورة تحمل اليهم ما أتُمنت عليه من لدن الله شعرت بأنّ بينها وبين العالم هوّةً سحيقة وبأن رسالتها لا حدودَ لها وبأنّ عليها ان تتفهّم كلامَ الله على ضوء الواقع مع ما فيه من الطموح والآمال والمآسي.

هي المأساة: الكنيسة والعالم. أخوا صنوان يتناظران ويكونُ السبقُ للواحد على الآخر. أليس الإنسانُ مَن تُريده الكنيسة ويُريده العالم ومَن في خدمته تضع الكنيسة ما اعطاها ايّاه الله من قوى ووسائلَ روحيّة ويضع العالم كل مقدّرات الارض والكون؟ هي المأساة في مكالمة الكنيسة والعالم. ولقد انحنى المجمع المقدّس المسكوني الفاتيكاني الثاني وجرّب ان يتفهّم أسسَها ويُعطيَ المأساة تلك الحلّ الوافي: إذ حلولُ العالم، وإن ضمّدت جُرحاً تحزّ في قلب الانسان لانها تتناساه، وإن ارادت خدمتَه: وتغضُّ النظر عمّا فيه من روح الله لا تسدُّ جوعَه المادّة، وإن ساعدته على الحياة، ولا تروي عطشه الاقتصاديات وإن دُعي حقّاً للاهتمام بها وللعمل فيها ولاستعمالها كي يكونَ للارض، خليقة الله، وجهُ الانسان.

١

فما هو عالمنا اليوم؟ ثلاثٌ تميّزه: فهو عالم الطموح والمتناقضات، عالم الحيرة واليأس وعالمُ التحدّي.

استفاق الإنسان من سُباته على حقيقة أشعلت إرادته حماساً، استفاق على حريّته وضرورة تحمّل أعباء المسؤولية وهو ليسَ بعدُ في عهد الطفولة بل قد تجاوزه فبايعَ نفسَه السّيطرة على الكون وعمل فيه وطمح الى توجيهه وتبديله وتوصّل إلى إعطائه وجهاً يدل على تغييرات عميقة على صعيد الإجتماع والثقافة والمدنيّة، ما بانت أن أثّرت على الإنسان

صانعها في حياته الدينيّة وفي احكامه وتفكيره وأعماله فيشعر وهو يمدّ يدّه للسيطرة على الكون بأنه لا يتملك على قواه وحريته فتخونه هذه ويلتحق بها ؛ يشعرُ وهو يدخل بين طيّات كيانه دارساً ومتعمّقاً بأنّه لا يتوصّل إلى أسس أمينة تُنبيه على حقيقته. يشعرُ وهو يوسع آفاقَ اكتشافاته الإجتماعيّة بأنه يتضيع في اعطاء التوجيه الصادق. وبينا تكثُرُ بين يديه ثرواتُ الأرض وتعمل الإقتصاديات على دره كل طارئ مؤسف يزداد الجوع ويتراكم البؤس والشقاء ؛ بينا تتأصّل في العقول روحُ الحريّة والاستقلال يُخيم على البشريّة استعبادٌ إجتماعي وجالٌ نفساني. بينا تتوق البشريّةُ تلك إلى الوحدة والتكاتف في خدمة الإنسان. تتطاحن الشعوب في اختلافات لا تُحصى ، سياسيّة واجتماعية واقتصادية وفكريّة. تنبتُ من عنصريّة لا تهاب الحرب وإنْ دمّرت ما حصّله التطور بجُهدٍ وعناء ؛ بينا ترضى البشريّة تلك بأن تسلّمَ بعض مقدّراتها لمؤسسة دوليّة تسهر على مصيرها ، لا نرى أنّ في ذلك روحاً كافية لتلافي الأحقاد ولاستتباب السلم.

هذا الترجرج ناتجٌ عن حريّة إنسانيّة فضّلت الانغلاق على نفسها والركونَ إلى قوتها في عالم جعلته ضيّقاً كما وهي قصيرةُ المدى لا أبعادَ لها في ما وراء المنظور والانسان يُكيّف على شكله كلّ ما يلمسُهُ.

ولكنّ هذا الطموح والمتناقضات تُدخل الانسانَ في عالم الحيرة واليأس.

لم يغيّر الانسانُ وجهَ الكون فحسب ولكنّه بدّل أيضاً طريقةَ التفكير ووجه الثقافة توجيهاً مغايرًا لما كانت عليه فيما سبق من الأزمنة وأعطى المجتمعَ أغوارًا جديدة.

تفوزُ التقنيّةُ اليوم بما فيها من عقليّة وضعيّة وحب المنطق في تسلسل البراهين والابتعاد عمّا في البشر من عاطفة تزهر ومن حدْس ؛ بينه وبينَ الحقيقة صلةٌ عميقة ؛ تفوز التقنية بالقيم الإنسانية : حسبما كانت تُدعى ؛ فتُخرج الانسانَ من أجواء تفكير أساسُها الحياة وغايتُها معنى الحياة لترميَ به في الفضاء. ولكنّ تلك التقنيّة لا تسمحُ للإنسان أن يتعرّف إلى نفسه فقط بل وأنْ يؤثر على غيره وأن يستدركَ تطويرَ المجتمع بتحديد النسل وان يكوّن مجتمعاً يكثر فيه الاتّصال بين الشعوب مع تكاثر وسائل الأعلام فتشترك كلُّها وبسرعة البرق في أداء الآراء وفي

توجيه الرأي العالمي دونَ أن يكونَ في هذه الإشتراكيّة ما يُحسِّن موقفَ الشخص البشري. فالإنسانُ لا يجدُ في هذا كلّه ما يجعلُه يتعاطى مع أخيه الإنسان ولا الشعوبُ الغربيّة مع الشعوب الشرقيّة معاطاةً تُسهم في زيادة القيم الشخصية وتوطيدها ونموها. فتذبلُ شخصيّةُ الفرد إزاء تضخّم الصناعة وتتعالى في عقله السؤالاتُ وعلاماتُ الإستفهام: مَن أنا ولِمَ وجودي على هذه الأرض. حيرةٌ ويأس. وبالتالي سؤالاتٌ عديدةٌ عن فضائلَ ورثها وتقاليدَ وصلَتْ اليه عن الجدود لا يرضى بها فيثورُ عليها ويرى فيها سلاسلَ تقيِّدُه وتربطُه إلى الماضي: والحريّةُ تناديه إلى الأمام. تلك الحريّة أساسُ عظمة الإنسان وشقائه. فيقف حائرًا أمام عالم أراد أن يحرّر الإنسان فاستعبدَه: فمن توتّر في العيلة بين النسل والظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة، إلى توتّر بين الشعوب الفقيرة والشعوب الثريّة إلى توتر بين المؤسّسات الدوليّة والأنانيّة الوطنيّة. هذا ما يهمّ العالمَ اليوم. فأين نحن من تصميمه الاوّل في تحرير الإنسان؟ والإنسان في كل هذا ضحيّة يطلب أيّا كان، لا أن يعيشَ في عمله وبعمله فقط ولكن أن يَغرُف من مناهل الحياة ويشتركَ في بنائها: في مظاهرها الاقتصاديّة والإجتماعيّة والسّياسيّة والثقافيّة. وفي هذا كله حيرة ويأس. يشعر الإنسان في عالم اتّسم بالقوّة والضعف معاً بعدم توازن خارجي — وهو يعلم أن مستقبلَ القوى التي فجّرها يتعلّق به فتطحنه أو تخدمُه — وخاصّة بعدم توازن داخلي يتأصّل في قلبه في مأساة التوق إلى علٍ وإلى الانفلات والارتباك بأمورٍ دنيويّة عديدة، في مأساة الميل الى الشرّ يشترك فيه والميل الى الخير، يريدُه ولا يعمله، في مأساة العقل لا يتوصّل في ثروته الفكريّة إلى تنسيقها التنسيقَ الوفي وربطها بمبدأ يوحّدها ويُعطيها قيمة عمليّة لتوجيه الحياة. ويعودُ في حيرة ويأس ويتساءل مَن أنا ولِمَ وجودي على الارض؟ وما معنى الحياة في مظاهرها العديدة: الشرّ والموت ولم ينتصرْ عليهما العالم في تطويره العلمي؟ وما هنالك بعد الموت؟ سؤالاتٌ ليسَ بمقدوره أن يُبعدها وإن تجاهلها فتظل تلاحقُه كظلّه.

ولكنّ العالم لا يرضى بهذه السؤالات فيتحدّى مَن يعرضُها عليه. فعالمنا عالم التحدّي. إذ ما قيمة الايمان في عالمٍ لا يحتاجُ اليه لا في عمله ولا في اكتشافاته العلميّة ولا في الاستدلال على طريق الحياة. والرّجاء الذي يغذّيه الإيمان بحياة أخرى ليسَ سوى تخدير العقل وتنويم الارادة

كي يبتعدَ الإنسان عن استعمال قواه واختبار المجاذفة بالحريّة ووضعها في خدمة أخيه الإنسان. فلا بدَّ إذًا أن يعودَ اليومَ الانسان إلى قرارة نفسه ويَعيَ مقدَّراته ويَهتمَّ بالعمل لا رائدَ له إلاّ العودةُ المستمرَّة إلى الحقيقة. والحقيقةُ هي هي لا تتبدَّل. ما يساعد الإنسان على تكوين هذه الأرض وجعلها الفردوس الذي ما بعده فردوس وكلُّ ما تبقّى فهو غريب عن الانسان وغريبٌ عن دعوته الأساسيّة في التكاتف مع الغير لبناء يدوم. أعطوا الانسان هذا العالم فيزول التوق الى عالم آخر.

وما دورُ الايمان في الحياة الزوجيّة والعائليّة، يتخبّط بين طيّاتها إنسانُ اليوم ويشعر بالمضايقات التي تفرضها عليه المبادئ الايمانيّة: وهي غريبةٌ عن الحياة الحاضرة بما فيها من صُعوبات ومصائب. ولتلك العقيدة الايمانية تاريخُها وظروفها لا تنطبق على ما يكتشفهُ الإنسان من تحرُّر ومن تفتّح لا يسمحان له بالخنوع أمام ما لا يُقرّه الزمن الحاضر.

وما عدا ذلك، فما هو دورُ الإيمان في إلقاء النور على مجرى التاريخ: أعاصير وانقلابات وحروبٌ طاحنة ومصائبُ لا تُحصى ليسَ لها أيّةُ صلة بحياة أبدية. فما من سبب للتعثر بعقائدَ كان من سوء حظ العصور الغابرة أن أثّرت عليها وليس لها مع علم اليوم من مبرّر. والعلمُ ليعطي الإنسان فرحاً ورغدَ عيش يحولان دونَ التفكير بعالم آخر هو وهمٌ تقلّب في عقول الكثيرين ووصلَ الينا من خلال التاريخ إذ باستطاعة علم اليوم أن يهبَّ بالإنسان إلى تجاوز حدوده وإلى الإنتاج في فترة قصيرة من عمره اكثر من عصور هيمنَ عليها الإيمان وكان فيها الرادعَ الأقوى لحريّة لم يساعدْها على التفتّح في أبعاد العظمة والمجد بل أخمدَها وخنقها.

ولكنَّ العالم اليوم لا يتحدّى الإيمان إلاّ لأنه يتحدّى اللهَ بالذات ويعتبر أن مُشكلةَ الله مشكلةٌ تافهة ليس على الانسان أن يضيع وقته في التفتيش عن حلّ لها وهو الذي عليه أن يسهرَ ليملأ دقائق أوقاته من عمل بنّاء في خدمة الغير. فلا غاية للانسان إلاّه ولا معبود له الاّه واذا ما أرادَ أن يسيرَ على طريق التقدُّم والعلم عليه أن يهجرَ الله وان لا يفكّر الاّ بنفسه؛ فتفاهة الله بالنسبة للعلم وتفاهته بالنسبة للحياة لتخوّلان الإنسان أن يسير في الحياة نحو التطوّر الاقتصادي والاجتماعي يجد فيهما ما يعوّض عليه خسارة عصور عبرت. إذ ليس للإنسان ولا يعتريه من مشاكل الساعة من منفعة يستقيها من عقيدة تأتيه من بطون

التاريخ لم يجرؤ أحدٌ على انتقادها ورفضها الرفضَ المطلق ويؤسّسَ حياةَ البشرية بكاملها على انقاضها . فلن يؤثرَ الله على الجيل العشرين ولن يرضى الإنسان عن حريّته بديلاً وقد صار بالغاً يبني التاريخ ويخسر في الوقت عينه وعيه الديني ؛ فكان في ذلك خلاصُه . فلا يريد بعدئذ ان يقتسم الحياةَ معه الآ الانسانُ اخوه ؛ يتعاطى معه معاطاة الإنتاج والأثمار لا معاطاةَ الحبّ والصداقة والإلفة اذ هي أمور لا ضرورةَ لها في تطوير المدنيّة وقد ورثها من عقيدة كانت تدّعي الوحي . فيصيرُ إذاك انسانُ اليوم محورَ التاريخ والانسانَ الشامل ويسير أيضاً في تفكيره فيُعطي نفسَه ما نفاه عن الله من صفات ويُصبح الانسانُ الشامل الإنسانَ الكامل .

●

إلى هنا وصل عالمُ اليوم في تطويره . ولكن من الحيْف أن نُلصق به السلبيّة فقط وفيه ما يوجهه دائماً إلى السؤال الذي لا بدّ منه عن الله وعن الإنسان وكلاهما لا يفترقان في التفتيش عن الحقيقة . ولقد نجد عند بعض العلماء آراءً تعارض ما سبق وقدّمناه إذ يقول انشتاين : إنه لم يراقب في العلم ما يعترض الدين وإن هجرَ الله ليترك للعالم تفاهة ويأساً[١] . ويقول لويس ده بروبلي ايضاً : «إن أعمق تأثير يعترينا في حياتنا هو التأثير الصوفيّ الذي هو بدءُ العلم الحقيقي»[٢] . ولذا فنظرةٍ الى عالمِ اليوم كما عرضناه في ميزانه الثلاث تدلّنا على أن التحقيق حلّ محلّ الحقيقة وأن النجاح أعاض به العالم من العقيدة . ولذا فالتقنية هي الوسيلة الوحيدة ليُكيّفَ بها حياتَه وتاريخه . انما يختبر أنّ كلّ ذلك عابر يتبدّل بتبدّل الأيام والمناطق والأجواء ويُبقي الانسانَ أمام الألم الذي يدلّ على إفلاس العقل والعلم ؛ يُبقيه امام الموت الذي تتحطّم عليه غزارة الإنتاج الاقتصادي وتصير الطبيعة بالنسبة للإنسان في لامبالاة صامتة تطحنه بعتوّها وتفاهتها . فيشعر العالم إذاك بحنين إلى الله أقوى وأعمق من ايمان بعض المؤمنين السّطحي إذ يودّ تطهيرَ فكرة الله وتنقيتها مما يشوبُها من خرافات ألصقوها بها عن وعي أو عن غير وعي . وعلى المؤمنين الحقيقيين ؛ على الكنيسة أن تُعطيَ العالمَ ما هو بحاجة اليه وأن تُجاوبَ على ما يسكتُ العالم أمامَه حائراً .

---

١) Ph. Frank, *Einstein, sa vie et son temps.*

٢) L. de Broglie, *Continu et discontinu*, p. 98.

٢

ترى الكنيسة نفسها مسؤولة عن العالم وهي جزء منه . وضعها مؤسسها الإلهي في العالم : شعباً مختاراً ، ووسمها بطابع تجسده لتكون بين الأمم عامود نور وحدياً لمن أراد . فلا يحق لها أن تفلت من هذه المسؤولية وقد بنيت على هذه الدعوة الأصلية : تمديد رسالة المسيح بين البشر . وإن كان التاريخ يضفي عليها ثوباً يبليه التاريخ التالي مما علق بها من امور عابرة ارضية : وان كانت الأيام تتوالى عليها مجددة فيها بالروح القدس ما شاخ من عادات وتقاليد ومراسيم خارجية : فهو التاريخ وهي الأيام التي تطلب الى الكنيسة أن تطبق الإنجيل الذي تعيته والذي هو شرعتها الوحيدة على مشاكل واقعية وعلى عالم عليها أن تخلصه وتعود به دوماً إلى خالقه . هو التاريخ وهي الأيام التي تضع الكنيسة ، وهي من العالم وفي العالم وللعالم ، أمام واجبات عليها ان تعيها ؛ إذ فيها نقطة انطلاق جديدة لرسالتها العملية . فالكنيسة اذاً تتلقن من التاريخ دروساً وتعطيها الشروح الوافية ، تتعلم من الايام والأحداث التي تحمل اليها ، بارادة علوية ، شيئاً من حياة الإنسان ومن توقه المتأصل في القلب ، وإن شطاً فيظل يرنو الى الغذاء الحقيقي ، فتقدم له من كنوز اؤتمنت عليها ، جدداً وعتقاً . هو التاريخ وهي الأيام يعطيان الكنيسة وجهاً يتعرف اليه العالم ، وجهاً هو منه وغريب عنه في الوقت عينه ، وجهاً عليه إمارات الزمن وإمارات الأبدية ، وجهاً يود العالم لو غاب عنه ولكنه يشعر أن له فيه حياة .

تجاه هذا العالم الطبيعي غير المسيحي عادت الكنيسة إلى ينابيع رسالتها تتفجر في أعماق كيانها ، وقد سترتها بعض الحالات الزمنية : إجتماعية واقتصادية وسياسية وشعرت اليوم بالرسالة تتدفق فيها نحو العالم المكلفة به من لدن الله ، تزيد ان لا تغيب عنه فتكالمه حسب شعوره وصعوباته ومشاكله وطرق تفكيره دون أن تملي عليه آراءها . تسمعه فتجيب ؛ تغبطه على تطويره وتعطيه معنى التطوير الحقيقي وتؤكد له أن الإنسان الذي يريد تحريره من عبودية المادة ومن خرافات علقت بذهنه فجعلته غريباً عن عقله وصدق توجيهه الفكري ، أن ذلك الإنسان الذي يريد العالم تحريره من المرض والموت هو هو محور إهتمامها وأن البشرية الحرة التي يتمخض عنها العالم هي هي تلك البشرية التي

تريدها الكنيسة ملكوتاً للمسيح . فمن الخارج الى الباطن ، ومن الخوف الذي كان يعتري الإنسان أمام الطبيعة وأهوالها إلى التمرس بقوة تفرضه حتى على الطبيعة والكون ليعود الى مشاكل حياته الأصيلة التي تهزه ، تسير الكنيسة بالإنسان في حياة تريدها شخصية تُعتق من عبودية الفساد وتصل إلى حرية مجد ابناء الله (رومية ٢١/٨) .

فبينا ينتظر العالم من الإنسان وحده تحرير أخيه الانسان والسير به الى الخلاص ، تقف الكنيسة وتعتبر باختبارها التاريخ . أن ذلك مستحيل وأن كمال الخلاص والتحرر عطية من الله بالمخلص الوحيد الذي بدونه يبني الانسان سدى برج بابل . ولقد أعطي للعالم هدياً ونوراً وطريقاً يُحتذى به . يبدل العالم من الباطن في تطوير روحي مستمر إلى أن يصل به إلى ذروة التجديد يوماً بتلك القيامة . وذلك الانتفاض من الموت إذ قهر الموت بالموت . فهو اذاً للعالم الألف والياء ، يحمل اليه بشارة محبة الله وارادته في تقديسه ليعود العالم عن غيه في سلام الدعوة الأولى التي دُعي اليها بالخلق . ويُصبح قيثارة مجد الآب تلحن موجاتها ألسنة البشر . هو الألف والياء إذ لبس طبيعتنا الإنسانية وأخذها بكاملها ما عدا الخطيئة : ولذلك فيتقبل الانسان إذاك بالكلمة المتجسد « باكورة الروح » (رومية ٢٣/٨) ويُجدد في قلبه وارادته وعقله بانتظار « فداء جسده » (رومية ٢٣/٨) على حد قول بولس الرسول .

وإذ يشترك الانسان بسر موت وقيامة المسيح الإله بالعماد المقدس يصير نسياً كالمسيح نفسه خميرة تُعطي الحيوية والقوة للعالم ويسير به إلى الأمام يخلصه بقداسته ويوجهه الى مجد القيامة برجاء لا يُخزى. في هذه الشركة فخر الإنسان وكرامته بها تتكون في الإنسان قوة تغير الموت اذ تُعطي الموت معنى خلاصياً بموت المسيح ونهوضه ، بها تتكون في الإنسان قوة تحمله إلى الترديد بالروح وقد صار ابناً بالابن الوحيد : « أبا أيها الآب » (رومية ١٥/٨) .

٥

بهذه الشركة بالذات تُصبح الكنيسة الخميرة في العالم يُجليها العالم وهي جزء منه ولكنها تُجليه وهي ضميره وروحه : إذ ليست الكنيسة مجتمعاً كسائر المجتمعات ولكنها شعب الله تُعطي أمور الدنيا أبعادها الحقيقية . فالكنيسة وإن اهتمت في عهودها الغابرة باعطاء الحياة البشرية وأعمالها الصفة

الأخلاقية دون ان تهتمّ لقيمها الاقتصادية والكونيّة . وإن اهتمّت خاصّة بتنظيم تلك الحياة دون أن تأبهَ للأبعاد التقنيّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة ، وإن اهتمّت بالنيّات الموجّهة للامور وبغاية تلك الأمور دونَ أن تنتبهَ للصّلة الدنيويّة العلميّة ، وبذلك تكون قد اهملت نقطةً هي بالنسبة لحياة انسان اليوم بمثابة نسمة يتنشّقها ليعيش : فانّها . إذ تُعطي العالم المبادئ الأساسيّة لحياته . تقول الكلمةَ الفصل على صلة تطوير العالم المادّي وصلة الخلق بملكوت الله .

فالانسان في نظر الكنيسة خُلقَ على صورة الله ومثاله . فليس هو المطلق وليس هو ما تتصوره اليوم الفلسفةُ الوجوديّة ، ذلك الكائن إلى الموت الذي تملأ حياتَه الحيرةُ واليأس فإنه يستمدُّ كرامته منَ الله خالقه ، إذ هو دعوةٌ منه ليُقيمَ معه مكالمةً فيها قوّتُه ونورُ حياته . فيؤهله الله للمعرفة وللمحبّة ويُقيمه سيداً على الكون يمجّد به الباري ويستعملُه لحياته بحريّة لا تستند فقط الى قوّة العقل والى صلابة الطبع ولكنْ الى الينبوع الذي تتأصّل فيه وهو روحانيّة الله مبدأ وغاية كل شيء . انما اساء الانسان استعمال تلك الحرية فرفض علاقته بخالقه وادّعى المطلق ، فأفسد صلة المحبّة التي كانت تربطه بأصله وبأخيه الانسان وفقد التوازن الداخلي وفضّل الحياةَ في توتّر لا يهدأ له من بعده عقلٌ ولا ضميرٌ ولا ارادة فصارت حرّيةُ الانسانِ تميل إلى كلّ صوب ولم تعد تعلم اين الطريق ، عاجزةً عن مجابهة الشرّ الذي يُسيطر عليها ويُقيّدُها باستعباد أليم .

إنما الانسان اذا ما تعرّف الى نفسه الروحيّة والدائمة بدوام خالقها رفض بتاتاً الخضوع لخليقة وهميّة كوّنتها الأقدار . والظروف بل عاد دوماً إلى أعماقه ليتحسّس الحقيقة في صحّتها ، وهي الحقيقةُ تلك التي توصلُه إلى الحقيقة المطلقة سيّدة العالم وموجّهته والمعطية الانسان حكمةَ التروّي والدراية في تثبيت المنظور على أسس غير المنظور . بهذه الحكمة يُضفي الانسان على اكتشافاته الصادرة عن عقله وثقابة طبعه وجهاً انسانياً صحيحاً ويقلع عنها وجهَ الاستبداد المقيت ، إذ لولا تلك الحكمة لصارَ الإنسانُ ألعوبةَ قوّة أعطاها الإنطلاقةَ الأولى ولمْ يعد باستطاعته أن يوجّهها ناسياً أنّه على صورة الله كُوِّن وأنّ فيه ما يرفض الخنوع دوماً . ولذا فإن الضميرَ في الانسان ليُنبّهه على الخير والشرّ ، فيأمرُ أبناء شعب الله وقد أنارهم الايمان بأنْ يُصغوا لأوامره فيكونون في العالم ممّن يُعطونه الحلولَ الوافية لمشاكله المتعدّدة ، وخاصّة الأخلاقيّة منها ويشعرون بأنّ

من واجبهم أن يتجاوزوا الظواهرَ الى معناها والانظمةَ الخارجيةَ إلى مدلولها الحقيقي. وإذا ما سكتت هذه الظواهر وهذه الأنظمة الخارجية أمامَ الموت وأقرّت التقنيّة بضعفها لشرح ما يعتري الإنسان من كآبة وحسرة أمام التوق إلى البقاء وضرورة النهاية؛ فإن الكنيسة تهبُّ: وقد أنارها الروح بنعم الوحي؛ وتردِّدُ أنَّ الخالقَ لم يخلُقْ ليُبيد ولكنّه خلق ليُجدِّدَ الإنسانَ بعد خطيئته ويُجدِّد به الكونَ بخلاصٍ يعطيه اياه المسيح وبانتصارٍ على الموت ناله المسيح بموته. ويسيرُ الإنسانُ هكذا. وقد وضع فيه الباري شيئاً من أبديّته. إلى معانقة الإله في حضرةٍ لا تزول. انما على حريّة الإنسان. وقد جرحتْها الخطيئة. مسؤولية تحريرِه، بقوّة النعمة. ممّا يعلَق به من غُبار الطريق ومن أنانية وأثرة تمنعانه من التكاتف مع أخوته البشر إذ معهم كلّهم: عليه أن يُؤلّفَ مجتمعاً تغيب عنه التفرقة ويسود فيه الخير الشامل. فالتوتّر بين الشعوب والأفراد لا يتأصّل في الوضع السياسي والاقتصادي انما ينبع من داخل الانسان ومن نتائج الخطيئة التي تقسمه عن نفسه وعن الانسان أخيه بعد أن تكونَ أبعدتْه عن الله. وهو الله الذي يُريد الخير الشامل للبشريّة: اعطاها كنيسةً تكون فيها لا كسائر المنظّمات ولكن لتساعدَ المنظّمات التي يكوّنها الانسان على احترام كرامة الشخص البشري الذي: إن كانت عليه واجبات؛ فله حقوق وإحقاق هذه الحقوق ليساند الحريّة البشريّة في تطويرها، وهي الحريّة التي تقوم بدورها الاثيل في تغيير العقليّات والمجتمعات وفي استغلال المؤسسات، اية كانت: استغلالاً لخير البشريّة على هذه الارض: الروحي والمادي في كل أحواله الاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا كله احترامُ الإنسانِ لأخيه الانسان: فلا قتل ولا حرب ولا تعذيب ولا استعباد ولا بغاء ولا ظروف عمل لا يعود بعدها للحريّة من نموّ وازدهار. وعلاوةً على ذلك فالكنيسة تذهب إلى حمل الانسان على خدمة الأعداء ومحبّتهم وعلى طلب الغفران فإنّ الحقيقة الخلاصيّة تبشّر بالمساواة وتثور على كل تفرقة عنصرية كانت أو دينية ولا تقرّ لأحد باستعباد آخر: شعباً كان أو فرداً: الاستعباد الاجتماعي او السياسي: وهي اذ تطلب ايضاً وايضاً احترام الكرامة البشرية تدافع عن حقوق الإنسان الأساسية وتطلب العدالة الاجتماعية والتخلّص من ضغط الثروات الطائلة وتسنّ الشرائع لا الفردية فحسب ولكن الشرائع الجماعيّة التي على الفرد كما وعلى الجماعات أن يحترموها في حياتهم إذا ما أرادوا السّلم والسّلام.

هذا كله تحمله الكنيسة الى البشرية وتستقيه من نتائج تجسّد الكلمة ليعلّم الإنسان التفتّح على أخيه الإنسان وليخلّصه من عبوديّة الخطيئة. ولهذا فيبدو الأنسان مسؤولاً عن تتميم ارادة الله في مجرى التاريخ حيث يعمل لا كمنافس لله ولكن كمتمّم، بالروح العلوية: لما اراده الله منذ البدء لخليقة أحبّها فخلقها. فتصير الاكتشافات والاختراعات رمزاً للعظمة الإلهية، إذ القيم الارضية والايمان لا يختلفان وكلاهما يتأصّلان في الإله الواحد والوحيد، إذ العلم والايمان لا يتنافران، إنما بينهما صلةٌ وثيقة: فبينا العلم يسير على طريق الحياة، يردد الايمان أن قيمة الانسان لتعلو كلّ تطوير تقني وأن العلم إنْ لم يخدم الشخصَ البشري ويساعدْه على التملّك المتزايد على نفسه بات ظلماً وحتميّة. اي ان أعمال الانسان ان لم تطهّرْ وتسر الى كمالها بصليب المسيح وقيامته ظلّت معادية لخير الإنسان الحقيقي. فالكلمة المتجسّد أراد البشرَ أحراراً: يزهدون بأنانيّتهم ويجمعون القوى الأرضيّة كلّها في خدمة الحياة الإنسانية ويثبُونَ الى المستقبل، إلى ذلك الوقت حيث البشريّة تصير تقدمةً ترضي الله. وفي هذا التطوير تلعب الكنيسة الدور الأكبر، لتعمل، بصورة لا نُدركُها: على تحقيق الملكوت الذي أراده المسيح فتؤلّف: في حياة الجنس البشري: عائلة أبناء الله تنمو باستمرار. وإذ هي على هذه الحال فانها ترافق البشريّة وتتقاسم وإياها مصيرها الأرضي في هذا العالم: تعمل فيها كالخميرة وكالروح وقد دُعيت البشريّة بكاملها لتتجدّد بالمسيح وتصيرَ عائلة الله.

انما تحابك المدينتين الأرضيّة والسماويّة في هذا العالم، لا يُدركه إلاّ الايمان وسيظل السرّ في تاريخ البشرية إلى ان تصل يوماً إلى مجد أبناء الله بعد أن تكونَ الخطيئة قد هزّت دعائمها على هذه الأرض. فلن تكون رسالة الكنيسة سياسيّة ولا اقتصاديّة ولا اجتماعيّة. غايتها دينيّة. ومن هذه الغاية تتدفق الأنوار وتتفجر القوى التي تدعم جماعة البشر في الاذعان للشريعة الالهية، فيها يجد الانسان انسانيّته ومنها يسمع الجواب لكل ما يعتريه من مشاكل. فالانجيل لا يعاكس اندفاع العصر وتطويره ولكنّه يكرسه في طريق الخير: فتتعرّف الكنيسة الى كل ما هو حسنٌ وجميلٌ في عمل البشرية اليوم: وتساندُه طالما يرمي إلى تكوين وحدة البشر على صعيد الحياة الاقتصاديّة والسياسيّة فترى في تلك الهمة ما يتفق ورسالتها الأصلية. فتُنشئ المؤسّسات الخيرية وتبارك ما يصنعه الآخرون وتجتهد في ان تكونَ همزة وصل بين الشعوب والأمم رسالتها تحملُها وجوهرُها

يحملها إلى أن لا ترتبطَ بمدنيّة ما أو بمذهب سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي ما ، فتصيرُ بشمولها هذا ، إذا ما أُعطت حريّة العمل ، منارةً يستنير بهديها أبناء البشرية المتألمة .

وكلمة الكنيسة إذاك لأبنائها بألاّ يهجروا الأعمال الدنيويّة والتكاتف مع الغير . فالايمان يحثُهم إلى ذلك إذ يضعون في خدمة الجنس البشري كفاءاتهم ومسؤوليّتهم ويحفرون في المدينة الأرضيّة شريعة الله ويشهدون للمسيح في جماعة البشر . فلا تفرقة بين الإيمان والاعمال اليومية ، لا تفرقة بين المهنة والخدمة الاجتماعية والحياة الدينية ، وعلى غرار المسيح العامل ، على أبناء الكنيسة أن يُقيّموا بالقيم الدينية مجهودَهم البشري ، عائلياً كان ام مهنياً أم علمياً ام تقنياً ويوجهوه إلى غايته السامية وبالتالي إلى الخلاص . إذاك تُصبح الكنيسة رمز خلاص العالم بمؤسسها وخالقها المسيح الإله : تصبح السر الأكبر ، فيه تلتقي القيمُ الأرضية بالقيمة التي لا بدء لها ولا نهاية والتي تُعطيها حقيقتها وصدقَ فعاليتها .

٣

لا تكتفي الكنيسة في مساندة العالم في تطويره الى خالقه بأن تُسدي له المبادئ العامة ، وهي نتيجة رسالتها ونتيجة تجسّد ابن الله ونهوضه من الموت ، انما تفتّش معه عن تطبيقها على بعض مشاكله الحسّاسة والملحّة : الزواج والعائلة ، الثقافة وتطويرها ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، حياة الجماعة السياسية وتوطيد السلام . وفي كل هذه الحالات تعتبر الكنيسة أنّ أساس تفكيرها هو الشخصُ البشري واحترام كرامته وحريته .

فلا تنظر الكنيسة بادئ ذي بدء في الزواج الاّ إلى الحب الصحيح بين الزوجين ، والحب خصب بطبيعته ، ينبثق من الحب الإلهي ، توجهه وتغنيه قوة المسيح الخلاصيّة وتطهّره باستمرار خدمة الكنيسة من كل ما يعتريه في تطويره من ضعف . إذاك تتوطّد في الوالدين روحُ الدعوة السامية التي دعاهم الله اليها ويمجّدون الخالق مع ابنائهما ويعطيان للعالم مثال الكرامة والأمانة والسلام . وتساعد الكنيسة أيضاً على التفكير اذ تعلن حسب تعليم بولس الرسول أنّ الزواج إن هو إلا صورة وشركة العهد الذي يجمع المسيح بجسده السري .

وعلى هذين الأساسين تبني الكنيسة الزواج المسيحي ، وما تبقّى فهو

نتيجةٌ . فتسير الشخص البشري وقد أثاره الايمان يرجّه الى احترام الشرائع الالهية وإلى التضحية في سبيل العهد الزوجي الذي لا تنفصم عراه : والى مشاركة الخالق في خلقه فيحترم الحياة ويتطلّب انجاب البنين في جوّ صاف من الحبّ وتحمّل مسؤوليّات تربيتهم ويستفيد من العلوم كلها : الطبيةُ والاجتّماعية والنفسانية ، كي يصل الزوجان إلى التخلص من القلق الذي فيه يعيشان بالنسبة لتحديد النسل وللظروف الاقتصادية والانسانية . بهذا تظل الحياة بصلتها بمصير الإنسان الأبدي توجّه الزوجين إلى قيم الزواج والعائلة ويشهدُ الوالدان لمحبّة أوحى بها المسيح للعالم بموته وقيامته .

إمّا الثقافة فبينا تتّجه اليوم في طريق جديدة : وترتدي روحاً جديدة : وتُدخل البشرية في طور جديد من تاريخها . وتُعطي الحياة تفسيرًا جديدًا وتتزايد فيها النظرةُ الى العلوم والتقنيّة : وتخلق توترًا بين ما هي عليه وبين ما ورثه الإنسان من تقاليد تتأصّل في القيم الداخلية وتتأسس على ركائز النفسانيّة ، العديدة الشُعُب : حسب اختلاف العناصر والبلدان ، يُعطي الايمان التوجيه الصادق : أن في كل هذا لا اهميّة إلاّ للشخص البشري : والعالم الذي تبنيه الثقافة اليوم ، يجب ان يكون عالماً إنسانياً : تتزايد فيه القيمُ الانسانية : إذ لولاها لتوصّل التطويرُ إلى خنق كل حرية وخلق الذعر والوله في قلوب الناس ، وجعل العالم عالمَ الظلم والخوف . فلن يسمحَ للثقافة اذًا إلاّ بأن تكون في خدمة الإنسان وفي خدمة دعوته الكاملة : فيُعطي دوماً نورًا من الوحي الالهي ويقودُ إلى التعرف إلى الكلمة ــ الإبن الذي كان في العالم قبل أن يتجسّد، نورًا للعقل وهدياً للضمير . فلا انغلاق اذًا على حياة الإنسان الارضيّة : وفي هذا الانغلاق ما يقتل الإنسانَ يوماً إذ يقتل فيه وعيه الديني وانتباهه للصلة التي تربطه بخالقه . إنما الكنيسة لا تُنكر على الثقافة في تطويرها ما أعطته من توجيهات ايجابيّة كحب العلم والأمانة للحقيقة والعمل الجماعي وغيرها : ولكن في أيام يسير فيها العالم نحو بناء وحدة شاملة بالاضطلاع بروح الاستقلال والمسؤولية : تعيد عليه الكرّة بأن محور كل عمل هو الانسان : وهي هي التي تعمل لتخلّص البشرية من أزمات قد تودي بحياتها : أزمات الاستعباد للسياسة أو أزمات الإذعان المطلق لتطوير مادي وعلمي : اقتصادي واجتماعي ، تحمله إلينا ثقافة اليوم . فلا غروَ

اذا ما ألحّت الكنيسة على حق كل إنسان بالثقافة وضرورة شمولها بتطهيرها المستمر من كل عائق يمنع الفرد والجماعة البشرية من الإفادة منها .

يظل موقف الكنيسة هو هو لا يتبدّل على صعيد الحياة الاقتصادية والاجتماعية . فلا قيمة للثروات وان كثرت ان لم تخدم الانسان في دعوته الكاملة إذ هو محور وغاية الاقتصاد والاجتماع .

يخاف المفكرُ اليوم من طغيان الإقتصاد والقضاء على شخصية الإنسان . يخاف من عدم توازن بين الشعوب الذي يؤدي إلى الاستعباد . فتقول الكنيسة أن ذلك التطوير الاقتصادي يجب أن يظلّ تحت إشراف الإنسان بما فيه من انسانية خلاقة ، وروح خدمة الخير الشامل ، ومساعدة أخيه الإنسان للوصول ، بواسطة المادة ، إلى ما يصبو إليه بحريته . ولذا فتصير أعمال الإنسان ملأى بالتوجيه الانساني والالهي معاً وقد أعطى المسيح الشغلَ قيمته الخلاصيّة يوم كان يعمل في الناصرة . فلا مندوحةَ إذاً في تخمة الغنى من ان ينظر الانسان الى اخيه ويشركه بعمله ويعطيه الأجرة العدل ويسمح له بالتفتح الاجتماعي والثقافي والروحي اذ ليس الانسان العامل آلة انتاج وإثمار ، انما له كرامة تنبثق من كرامة الله بالذات . فأموال الأرض للكلّ ويجب أن تساعد الفقر والعوز لتزيلها أو لتخفف من وطأتها . إذاك تهدف الأموال ويهدف العمل الى ملكوت الله ويساندان الانسان في سيره الخيّر دون أن يكونا بقلّتها او بكثرتها عقبةً تحول دون الوصول الى من قال : طوبى للفقراء بالروح . وعلاوة على ذلك فتلح الكنيسة قائلة إن للملكيّة الخاصة معنى إذ تتصل بالإنسان ؛ لها معه صلة الحريّة التي تعبّر عن نفسها بامتداد الروح الى المادة والسيطرة عليها .

وإذ تتزايد اليوم التغيرات العميقة في مؤسسات الشعوب وأنظمتها بتزايد التبديلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فإن الكنيسة تعود وتتكلّم على حقوق وواجبات المواطن في خدمة الخير الشامل . وإذا ما وضحت اليوم ، اكثر مما مضى من الزمن ، كرامة الإنسان وحرية الاجتماع فتطلب الكنيسة حقّ الكلام للكلّ وحرية الفكر والضمير والدين وبالتالي تسهر على حقوق الاقليات وفي ذلك يقوم التطوير الصحيح والنمو بروح

العدل الصادق . وإذا ما زادت سلطة المؤسسات والدول ، فتهبّ الكنيسة للدفاع عن حقوق الأفراد . فلا تفرقة إذاً بين أعضاء الوطن الواحد الذين يتوجّب عليهم حمل المسؤولية في لعب الدور الذي يعود لهم في تطوير الوطن ومفهوم السلطة . وإذا ما شطّت الدول في تأكيد استقلالها المطلق فتعود الكنيسة لتفهّمها أنها ودولَ الأرض في استقلال نسبي وكلاهما يعملان في خدمة الشخص البشرية والاجتماعية وبالتالي لخدمة ملكوت الله .

٥

أما وقد صارت البشرية واعيةً لوحدتها وتكاثرت الوسائل لتسهّل تكاتف وتعاضد اعضائها في الخدمة ؛ تنبّه الكنيسة ابناء العالم ؛ وقد هدمت الحروب حياةً غالية ودمّرت معالم مدنيّات عظيمة ؛ الى ضرورة احلال السلام والسهر عليه ، إذ السلام يتطوّر وينمو ويذبل إذ ما سهر الجميع على احترام خير الشخص البشري وكرامته وتوزيع الثروات المادية والروحية . فالسلام ينبت من قلب الإنسان ، وفي قلب الانسان تتأصل الحرب ، في انانيته . ولذا فالكنيسة تطهّر ذلك القلب وترتّل الحان المحبّة التي لها وحدها القوّة ان تقرّب الانسان من اخيه الانسان وان تنتصر على همجيّة الحروب وان تفرض احترام الأقليات وان تضمن السلام العالمي . وإذا ما جمعت الشعوب الأسلحة وصرفت الثروات الطائلة في سبيل تكنيزها فلا رادعَ عن استعمالها سوى التكاتف لوضعها في خدمة الإنسان والعودة الى جمعية الامم لتفادي التفرقة ولتكوّن نظاماً اقتصادياً عالياً يستفيد منه الجميع ويخدمُ التفتّح الإنساني ويعتق البشرية من شبح الفقر أو من تخمة الثروة لتنتفع من الروحيات . انما على كل شعب أن يهمّ في نطاق ثرواته البشرية والماديّة وأن يسعى لتحسين احواله وألّا يعيش فقط في رجاء ما سيأتيه من حسنات الغير . وفي هذا كلّه تنبه الكنيسة الأفرادَ والجماعات إلى أن الإنسان ، وإن أحتاج إلى الخبز ، فإنه لا يقتات فقط من خبز الأرض .

٥

الخاتمـــة :

في جوهر الكنيسة مكالمة العالم . فلا يحق لها أن تظلّ في برج عاجي تحفظ الحقيقة لها ولأبنائها ؛ ولا أن تُكنز وسائل الخلاص لها ولأبنائها . تقودُها أمنيّةٌ من صُلب رسالتها ؛ وهي في أن تكون مع البشر في حياتهم لتقودَهم إلى الاتحاد بالله بالمسيح يسوع . تشعرُ بتوق لا يترك لها من سبيل للراحة ؛ توق إلى الرسالة بالتبشير بكلام الله وبالخدمة وبالحياة الطقسية حول مائدة الخلاص . تودُّ أن تتحرّر مما تتعثّر به في سيرها لتحملَ ، في عناق العالم ، مثل الحرية لمن افتداهم الكلمةُ المتجسّد ليُعتقوا من ربقة العبوديّة ويتكاتفوا في محبة صادقة ويُعطوا العالم وجه الانسان وإمارات الله . فيُكرّسونه خليقةً لا تتلاعبُ بها أيدي الشر ، خليقةً تنبع منها حياةٌ لخدمة الانسان : «أتيت لتكونَ لهم الحياة وتكون لهم أوفر» (يو ١٠/١٠) .